منشأ الدولة الأتابكية

لتامر الفتلاوي

من أعضاء مكتب الدراسات الإسلامية بدمشق

يبدو للمتأمل في مجرى التاريخ أن الدول الحاكمة ينشأ بعضها عن بعض في تسلسل منظم، فلا يكاد يضعف أمر أمة بعد العزة والمنعة والقوة، وتدب اليها عوامل الانحلال والتفوضي، حتى يستيقظ فيها عنصر جديد فتي يتسلم الحكم فيها، أو يغزوها حاكم أجنبي قوي يستولي عليها. هذا هو شأن الأمم والممالك في الشرق والغرب. انقضى عهد الخلفاء الراشدين، فتلاه عهد الأمويين ثم أعقبهم العباسيون ثم . . . ثم . . . ثم تلاهم بنو بويه فبنو سلجوق، فالأتابكيون، فالأيوبيون ...

كانت الدولة السلجوقية [1] على جانب عظيم من القوة ومنعة الجانب وسعة السلطان، عمّ نفوذها خراسان والري وكرمان وبلاد الروم وامتد إلى العراق وسورية، وتعاقب عليها ملوك ذوو طموح وهمة وحزم، وبدوا بدعائهم وحسن سياستهم هذا الملك الشاسع وحفظوه من طمع الطامعين وكيد الخائنين، ولكن لم يكد ينقضي القرن الخامس الهجري حتى مال نجمها إلى الأفول منذ قضى عاهلها العظيم ملكشاه، فتفككت عراها وانحلت أواصرها وتقوضت دعائمها، فاستقل الأميران سليمان وتاج الدولة تتش بملكتيهما — الأول في آسية الصغرى والآخر في بلاد الشام — استقلالاً تامًّا، وعادا لم يربطهما بالسلطان غير السيادة الاسمية، وتبعهما في هذا الاستقلال من الدولة الأمراء الآخرون الذين لم يجسروا على ذلك إلاّ بعد موت ملكشاه وانقسام الملك، وكلاهما من ذوي العبقرية الفذة والشخصية القوية، فأتاحت لهما عظمة الدولة السلجوقية وانهيار بناؤها الشامخ المتين.

كان لملكشاه هذا مملوك [2] تركي يدعى آق سنقر بن عبد الله [3] تزوج خاصة السلطان إدريس بن طغان شاه، وحظي بثقة ملكشاه فأصبح من أمرائه وصار من المقربين إليه ومن خواصّه، واعتمد عليه ملكشاه في مهماته، وزاد قدره علوًّا إلى أن صار يتّقيه مثل

(١) دامت الدولة السلجوقية الكبرى التي أسسها طغرل بك ٩٣ عاما (٤٢٩ — ٥٢٢ هـ) ودامت الدولة السلجوقية في سورية — وهي التي نشأت منها الدولة الاتابكية — ٢٤ عاماً (٤٨٧ — ٥١١ هـ).

(٢) وقيل إنه لصيق له لا مملوكه أي من أصحابه وأترابه ومن ربي معه في صغره. (٣) وقيل إن اسم أبيه آل تركان من قبيلة سلجوق.

نظام الملك، مع تحكمه في السلطان وتمكنه من المملكة فأشار نظام الملك على السلطان أن يولي آق سنقر مدينة حلب وأعمالها وحماة ومنبج واللاذقية ، وأراد بذلك أن يبعده عن خدمة السلطان ويتخذ عنده يداً بذلك ، فأقطعه السلطان جميع ذلك . قال ابن الأثير : ومن الدليل على علوّ مرتبته تلقيه بقسيم الدولة وكانت الألقاب حينئذٍ معونة لا تعطى إلاّ لمستحقيها[1].

ولما قدم ملكشاه حلب في رمضان ٤٧٩ هـ قاصداً أخاه تاج الدولة تتش ، قدم معهُ آق سنقر وانهزم تتش ، وبعد انقضاء عيد الفطر رحل ملكشاه عنها وقرر ولايتها لآق سنقر هذا في مستهلّ عام ٤٨٠ ولقّبه قسيم الدولة فبقي فيها والياً إلى أن توفي وليّ نعمته ملكشاه ولم يزل بها حتى قتله تاج الدولة .

وأجمع المؤرخون على أن آق سنقر كان حسن السيرة إداريًّا حازماً ، ساد في أيامه العدل والإنصاف . وانتشر الأمن في أرجاء حلب وعمّ الرخاء . كان قطاع الطرق منتشرين في البلدة يزعجون الناس ويثيرون مخاوفهم ، فتتبعهم وتتبّع اللصوص في كل مكان حتى استطاع أن يستأصل شأفتهم ، وكتب إلى الأطراف أن يفعلوا مثل فعله فأمنت الطرق بعد خوفها وسلكت السبل بعد انقطاعها ، فشكر له الناس ذلك ، وبلغ به الاهتمام أن وضع نظاماً يقضي بأنه إذا وقعت حادثة سرقة في إحدى المناطق فرضت قيمتها على جميع القرى المجاورة لها[2] .

قال ابن الأثير الجزري : « كان قسيم الدولة آق سنقر أحسن الأمراء سياسة لرعيته وحفظاً لهم وكانت بلاده بين عدل عام ورخص شامل وأمن واسع ، وكان قد شرط على أهل كل قرية في بلاده متى أخذ عند أحدهم قتيل أو غيره غرّم أهلها جميع ما يؤخذ من الأموال من قليل وكثير ، فكانت السيارة إذا بلغوا قرية من بلاده ألقوا رحالهم وناموا وقام أهل القرية يحرسونهم إلى أن يرحلوا ، فأمنت الطرق وتحدّث الركبان بحسن سيرته » .

وشنق من قطّاع الطرق خلقاً ، وكلما سمع بقاطع طريق في موضع قصده وأخذه وصلبه على أبواب المدينة ، وكان ذا هيبة عظيمة . وقرّب الحلبيّين وأحبّهم الحب المفرط وأحبوه أضعاف ذلك ، وأقام الحدود وأحيا أحكام الإسلام ، وكثرت في أيامه الأمطار وتفجرت العيون والأنهار ، وعامل أهل حلب بالرفق وقدّم اليهم من الجميل ما أحوجهم أن يترادفوا الرحمة عليه إلى آخر الدهر[3].

وبلغت السياسة المالية في عهده مبلغاً استغلّت به حلب في كل يوم ألفاً وخمسمائة

(١) الروضتين ٢٤ (٢) وقد أخذ بهذه النظرية بعض الأمم الحديثة .
(٣) الروضتين ٤ عن خط أبي عبد الله محمد بن علي المطيس

دينار[1]. أما الناحية العمرانية فإن مدينة حلب قد عمرت في أيامه بعد الأمن الذي ساد أرجاءها، إذ كثر ورود التجار عليها فقويت حركة التعامل وانتعشت الأسواق، وتقاطر الناس إليها للمقام بها بعد ما عرف من حسن سيرته وعدله، وجددت في عهده منارة حلب بالجامع عام ٤٨٦ ونقش اسمه عليها، وأمر ببناء مشهد قرنبيا، لمنام رآه بعض أهل زمانه، ووقف عليه الوقف.

هذا وكان السلطان ملكشاه يفكر قبيل وفاته في القيام بمشروعات كبيرة، منها إخضاع الخليفة الفاطمي في مصر، فأمر لهذه الغاية آق سنقر وبوزان عامل الرها أن يلتقيا بجندهما مع تتش الذي تولى قيادة الجيش، ولكنهم ما وصلوا إلى طرابلس حتى اختلفوا فيما بينهم. ويقال إن ابن عمار والي هذه المدينة رشا آق سنقر ووزيره زرين كر، ومهما يكن من شيء فقد عاد آق سنقر ادراجه فاضطر تتش إلى التخلي عن هذه الحملة، وبعد قليل توفي ملكشاه فانتهز تتش الفرصة للوصول إلى السلطنة.

ولهذا سار مسرعاً إلى حلب، وبالرغم من كراهية آق سنقر لتتش، لم ير من الحكمة أن يقف في سبيله فتبعه مرغماً وحذا بوزان حذوه. وبعد أن سارت جنودهم مسافة طويلة وكانت الحرب وشيكة الوقوع بينهم وبين بركيارق الوارث الشرعي للملكشاه لم يكن من آق سنقر وبوزان إلاَّ أن تخليا عن تتش وانضما إلى بركيارق فأجبر تتش على الارتداد إلى الشام، ولكنه مع هذا ظلَّ متشبثاً بأطماعه في السلطنة.

كانت كراهية آق سنقر الباطنة لتتش تبدو في بعض الأحوال بشكل واضح، من ذلك أن تاج الدولة تتش نزل مرة إلى السلطان ملكشاه، فلما رآه ترجل له — وكان في العيد — خيفة أن يسيء به الظن، وحضر هو وقسيم الدولة في حضرته، فقال تتش: كان من الأمر كذا وكذا، فقال له قسيم الدولة: تكذب. فقال له السلطان: تقول لأخي كذا؟ قال: نعم، يطلع الله في عليه ما يريده لك ويطلع في عيني ما أريده لك، فأسرها تتش في نفسه وأضمر السوء له.

ولما توفي السلطان ملكشاه كان تتش في دمشق، فأراد العبور مختفياً ليمضي إلى خراسان ويرث ملك أخيه، وخرج في شهر ربيع الأول سنة ٤٨٧ ومعه خلق من العرب وقطع عاصي ووعى عسكره الزرع ونهب المواشي وغيرها، واتصل الخبر بآق سنقر وهو بحلب فنهض إليه وكاتبه السلطان بركيارق وخطب له بحلب، فجمع وحشد واستنجد بمن يجاوره فوصل إليه كربوقا صاحب الموصل وبوزان صاحب الرها ويوسف بن أبق صاحب الرحبة في ألفي فارس وخمسمئة فارس منجدين قسيم الدولة، وحصل الجمع بحلب، واستدعى آق سنقر منجماً ليأخذ

(١) كتاب عنوان السير وكتاب شذرات الذهب

له الطالع فحضر عنده واختار له وقتاً وقال : تخرج الساعة فركب ومعه النجدة التي وصلته وجماعة كبيرة من بني كلاب مع شبل بن جامع ومبارك بن شبل وكان أطلقهما من الاعتقال، ومحمد بن زايدة وجماعة من أحداث حلب والديلم والخراسانية في أحسن زي وأكمل عدة ، وقيل إنهُ قدر عسكره بعشرين ألف فارس وقيل كان يزيد على ستة آلاف، وقصد تاج الدولة في ٩ جمادى الأولى . وتقول إحدى الروايات إن قسيم الدولة خرج إليه وقال لأصحابه : إلحقوني بكتاف الأسرى ـ استصغاراً لخصمه ـ فقال له سكمان بن أرتق : حركتهم ؟ ـ أي ، أرأيتهم ؟ ـ ولم يتمهل إلى حين تصل خيله لفحى واستعجل .

قطع آق سنقر سواقي نهر سبعين [1] قاصداً تتش ، وكان تتش قد وصل إلى الخانوتة ورحل منها إلى الناعورة وأغارت خيله على المواشي بالنقرة وأحرقوا بعض زرعها ورحل من الناعورة قاصداً الوادي وادي بزاعا ، وحصلت الواقعة عند قرية سبعين أو بكارس [2] وكان أول من برز للحرب آق سنقر ، فالتقى الفريقان ولم يثق آق سنقر بمن كان معه من العرب خوفاً من قائديه اللذين أخرجهما من السجن ، فنقلهم من الميمنة إلى الميسرة في وقت المصاف ثم نقلهم إلى القلب فلم يغنوا شيئاً ، وحمل عسكر تتش على عسكر آق سنقر فلم يثبت ، وانهزمت العرب وعسكر كربوقا وجوزان معهم إلى حلب ووقع فيهم القتل وثبت قسيم الدولة فأسر وأكثر أصحابه ، ورحل تتش من موضع المعركة إلى حلب فملكها واستولى على المواضع التي كانت لقسيم وجلس في قلعة حلب وشرب فيها وأحضر قسيم الدولة .

وقتل آق سنقر بين يدي تتش في سبعين أو بكارس وقال له تتش قبل قتله : لو ظفرت بي ما كنت صانعاً فيّ ؟ قال : أقتلك . قال : فأنا احكم عليك بما كنت تحكم عليّ ، وقتله صبراً ، وقطع رأسه وطيف به البلاد وحملت جثته فدفنت عند مشهد قَرْنَبيا وهي هضبة تقع قرب حلب ، وقيل إن آق سنقر قتل بقرية بكارس قرب حلب . ولما ولي ابنه عماد الدين زنكي — أبو نور الدين — نقله إلى مدرسة كان قد ابتدئ بعمارتها ولم تتم ووقف عليها ضيعتين هما شاش وكارس يساوي مغلهما ألف دينار كل سنة وعمر بها عمارة معجزة ونقل رمته إليها ، وجعل قبره قبالة المسجد من الشمال وأجرى إليها قناة ماء وغرس وسطها وجعل القبر مثل قبر أبي حنيفة رضي الله عنه .

وكان قتل آق سنقر يوم السبت ٩ جمادى الأولى سنة ٤٨٧ وقتل معه أربعة عشر مقدماً. [3]

« دمشق »

(١) قرية من قرى حلب من نقرة بني أسد على نهر الذهب (٢) وفي رواية : في أرض تل رمي قرية قريبة من إعزاز وضواحي حلب . وفي دائرة المعارف الاسلامية : عند قرية ريان . وهو خطأ
(٣) المصادر : الروضتين، وشذرات الذهب ، والنجوم الزاهرة ، وتاريخ ابن الاثير، وعنوان السير وغيرها .

التمثيل الخارجي*

للدكتور نجيب الهاشمي

هذه خمسة وعشرون عاماً والبلاد السورية تجد وتدأب في سبيل إدراك استقلالها وتحقيق وسائله ، فأجرت في سبيل هذه الغاية محاولات جمة ، وكانت تجدد المساعي في كل بضعة أعوام حتى دخلت البلاد في وضع سياسي أصبحنا نتطلع فيه إلى المستقبل بثقة تزداد مع الزمن ، ونحن نتوقع أن نستوحي من عبر الماضي وعظاته ما يكون عوناً لنا في تسديد خطواتنا ، ودليلاً ومرشداً في معالجة ما نحن مدعوون إلى معالجته من أمورنا .

والاستقلال الذي هو مظهر سلطان الأمة وحريتها إنما يتجلى في سيطرتها على أمورها الداخلية وأمورها الخارجية ، والتمثيل الخارجي أو السلك السياسي جزء من هذا السلطان . وسنبدأ في البحث بالأوصاف والمميزات التي يجب أن يتحلى بها رجال السياسة ، ثم نبحث عن رجال السلك السياسي وما يقومون به من الأعمال ، ونورد بعد ذلك بعض ما جاء في كتب العرب من الآراء في شأن السفراء والرسل والعيون والجواسيس ونشر الأخبار ، فنشاهد هذا التشابه العجيب في الآراء التي يأتي بها الفكر الإنساني في أجياله المختلفة لحل المعضلات المتشابهة التي تعرض عليه . والأمم والشعوب تتوارث الآراء والمذاهب ، والتشابه عظيم بين القواعد التي أخرجت للناس ، وميراث الفكر والعقل عام مشترك بين الجميع .

١ — أوصاف رجال السياسة ومميزاتهم

قد لا تكون صناعة أكثر تنوعاً واختلافاً من السياسة في معناها الدبلوماسي لأنها مرتبطة بجميع المشكلات التي يعالجها العالم ، ولذلك كانت وظيفة السياسي دقيقة غامضة تحتاج إلى خبرة نادرة وتجربة شاملة وفراسة بعيدة وفكرة سديدة وقدرة على العمل وصيانة للأسرار ، فينبغي لمن يتعاطى السياسة أن يكون متمكناً من نفسه مسيطراً على هواه لا يستفزه حال إلى البوح بما لم يكن قد صحّ رأيه على أن يبوح به ، وعليه أن يكتم ما يعرض في خاطره ، فلا ينطق بكل ما فكر فيه ، ولكن يفكر في كل ما ينطق به ، وليس الصمت في

---

* من كتاب المؤلف تحت الطبع

معرض البيان بحزم، ولكن الحزم أن يحسن المرء القول حيث ينبغي أن يكون . وليست قلة الكلام من شروط السياسة وقواعدها، فإن كثيراً من ساسة الباحثين عرفوا برقة الحاشية وحلاوة المحضر وحسن الحديث وطلاوة النكتة . وكان (تليران) نزر الكلام في المجامع ولكنه متبذل في مجالس ثقاته ، وكان (مترنيخ) أحسن الناس حديثاً وأكثرهم نادرة ، وكان اللورد (لينون) أحد مشاهير السفراء البريطانيين في أوائل الجمهورية الثالثة في باريس موصوفاً بفصاحة الأسلوب وسلاسة الكلام وخصب البيان ، ولكن هذه المزايا لم تمنعه أن يكون شديد الكتمان لا يفتح شفتيه عن كلمة لا يريد أن يقولها ، وقلما وجد رجل مثله يجمع مختلف المواهب العظيمة التي يتم بعضها عمل بعض . وقد كتبت جريدة التيمس حين مات هذا السياسي قالت : كان يجمع بين التفكير والثقافة وبين صفات الرجل السياسي الدائب المتبصر وبين الرقة والعذوبة والفن والأدب .

والدبلوماسي في عالم السياسة يحتاج إلى لين في الجانب ورقة في الحاشية وملاءمة في الطباع، وبذلك يستطيع السياسي أن يستطلع خفايا القلوب ؛ ثم لا بد له من أن يستمد من أعماق نفسه نبل العواطف ومكارم الأخلاق وصحة العزيمة وقوة الإرادة . فإذا اقتضت منافع بلاده أن يدافع عنها دافع بكل صلابة وشدة وثبات على الرأي الذي أنضجته الفكرة وهذبته التجارب، ولا شيء يودي بمصالح الأمم مثل التردد والتواني . كما أن من أشرف الخصال التي يسمو بها الساسة المضاء في الأمور والوقوف عند الرأي الذي قطع به ومسايرته إلى أن ينفذ ويبلغ أجله ، وقد كان الكردينال (ريشليو) واسع الحيلة بعيد النظر ولكنه متردد عندما يصير الأمر إلى الغاية القصوى ولا يبقى سوى إنفاذه ، ففي هذه الساعة الأخيرة كان يسرع إليه الأب (جوزيف) مستشاره فيعيد برأيه وحزمه .

وكذلك يجب على السياسي أن يكون حسن النظام في جميع أعماله وأطواره ، بعيداً عن التقائس والمتالب ، خالصاً من شوائب التخبط والاضطراب ، وماذا ترتجى المنافع العامة من رجل أخلى شؤونه الخاصة من كل تدبير ونظام أو أفرط في اللهو واللعب والتهالك . فانه لا يستحق أن يدخل في عداد الساسة أولئك الذين تحكمهم أهواؤهم ولا يحكمونها وتستعبدهم نفوسهم ولا يستبدون بها ، على أنه لا يكفي الرجل الذي يجدر به أن يمثل أمة أن يكون معروفاً بالعفة والنزاهة موصوفاً بالذكاء والفطنة ؛ بل عليه فوق ذلك أن يكون على جانب غير يسير من الاطلاع والمعرفة ، راسخ القدم في تدبير المصالح السياسية ، يغشى مجالس العظماء فيستفيد منها جليل الفوائد وتعقد بينه وبين رجالها روابط المودة . فالفوز في كثير من الأحاديث الخطيرة يرجع في الغالب إلى قيمة المحدث وما له من شأن ، وقد يكون هذا

الشرط كما قال (براديه فوديره) ، مشبطاً لهم فريق من الناس الذين تحسو بهم الانقلابات إلى المنازل التي لم يكونوا أهلاً لها .

وقد وصف (سان سيمون) أحد رجال السياسة في القرن السابع عشر (أرنولدري ومبون) بقوله : كان رجلاً منفرداً بشعور الحق والعدل ولين الجانب ودماثة الخلق ، يزن كل شيء ويصنعه بنضج دون بطء ، ويمتاز بمعالجة الأمور بفن وبراعة ودقة ومرونة ، فيصل إلى أغراضه بلا حيلة ولا استفزاز ، وهو على رقته وصبره لا يقصر في حزم ولا يغمز بنقص ولا يتوانى في الدفاع عن مصلحة الدولة وعظمة المملكة ، وعلى هذه الصفات التي عرف بها امتال جميع الذين فاوضوه في مختلف البلاد ، فكان موضع التقدير والثقة مهذباً محسناً ، لم يأتِ وزير مثله في حياة متشابهة منسجمة ، بعيدة من البذخ والترف ، لا يدع عمله العظيم إلا لأسرته وأصدقائه وكتبه ، وعلاقاته العذبة تشهوي النفوس وتسحرها ، وأحاديثه من غير أن يريد وأن يتكلف ، لا تنتهي فائدتها لسامعيه .

وصوّر الكاتب الفرنسي (لابرويير) رجل الدولة الذي يخلع عنه رداء الوراك ولباس الحاشية بسطور بليغة تنطبق على أوصاف رجال السياسة في كل مكان فقال : الوزير أو الوزير المفوض هو كالحرباء في تلونه ، فلا يغير أساريره وجهه إلا عمداً ، ويستشير في أعماله الزمان والمكان ويتحين الفرص ، ويتعرّف ما لديه من قوة أو ضعف ، ويترقب أحوال الشعوب التي يعاملها ويتأمل طبائعها وأمزجة رجالها الذين يفاوضونهم أو الذين يخلفونهم ، وكل آرائه وكل قواعده ونظراته وكل تدقيقاته السياسية وكل محاولاته إنما ترمي إلى غاية واحدة هي أن لا يكون قد خدع وأن يتمكن من خديعة سواه . ومن أعظم وسائل النجاح أن يعرف كيف يقول الحقيقة ، وهو فن يجب أن يبلغ الغاية من الإحاطة ، فعليه أن يكون بعيد الغور شديد الإبهام عند ما يريد إخفاء حقيقة يذكرها لأنه يهمه أن يذكرها وأن لا يصدق فيما قاله عنها ، ويتظاهر بأنه صريح صادق حتى يستطيع أن يخفي ما لا تجوز معرفته ، ويقنع مخاطبه بأنه قد أطلعه على ما يريد الاطلاع عليه ولم يكتم شيئاً في نفسه ، وهو كذلك يؤازر حلفاءه إذا وجد في ذلك ما يعينه على تحقيق أغراضه ، ويؤازر أيضاً الضعفاء ويؤلف بينهم لمقاومة الأقوياء والاحتفاظ بالتوازن بين القوى المختلفة . ويكون أيضاً لطيف العشرة ، ظاهر التمسك بقواعد الشرف بعيد الأثر في إدراك شؤون الحياة وإتقان تصاريف الكلام ووجوهه ، مقتدراً على الإتيان بالحجج الشريفة ، مكيناً في معرفة ما يوافق الزمان ويناسبه ، لا يتكلم إلا عن السلم وعن المحالفات وعن الطمأنينة العامة والخير العام ، ولكنه في الحقيقة

لا يفكر إلا في منافع سيده أو جمهوريته، وهو لا يخدع بما يقول ولا يعتقد به ، ويرمي في مساعيه الى الجوهر والغاية ، ويستعد دائماً لبذل الأمور الصغيرة وإهمال مسائل الشرف الموهومة .

وأوصى (الكونت دي بيلوف) ابنه الذي أصبح بعد ذلك (البرنس دي بيلوف) المستشار الالماني بوصية أورد فيها جملة من المزايا التي ينبغي أن يتصف بها رجال السياسة ويحرصوا عليها ، فقال فيما قال :

« الزم الحقيقة كل الحقيقة بدون مراءاة ولا تساهل في كل ما تنقله وترويه ، وإياك أن تحمل من الأنباء ما لا تعتمد على صحته وما يمكن أن تتضح حقيقته ذات يوم ، وإياك أن تقع في الاسفاف ونشر الذرائع والمبالغات والمفاخرات الباطلة وتلوين الأشياء بألوان زاهية جداً ، واحذر الافراط في الاستنتاج ، ولتجهد كل الاجتهاد في تحري الحقيقة وأنت تذكر الأرقام ، ولا تقع في الأشياء المخترعة والأساليب المستحدثة ، ولا تصف أمراً بأكثر مما هو على حقيقته إذا تأملته بهدوء وسكينة ، وكن حذراً فيما تقرره من حكم ، ولا تكون فيما ترويه وتخبر عنه ، فقد انقطع عهد النبوات والمعجزات والإخبار بالغيب والكهانة والنجوم ، وكل شيء يمكن حدوثه ولكن لا يمكن عقد الأيمان على شيء لأن التغير والتبدل من الأمور التي لا مفر منها ، ولا تجعل أحداً يقع في مشكلة بسبب تقاريرك ، فإنه لا يتفق مع أصول اللياقة وأسباب الحزم . ولا تكتب شيئاً في ساعة غضبك ... وعليك بالحذر فيما ترسله من برقيات ولكن كن أكثر حذراً عند وضع الأرقام التي يجب إهمال الفكرة كثيراً فيها . وإياك أن تفرط في النقد في تقاريرك فالنقد سهل والعمل صعب . . . وكن هادئ النفس معتدل المزاج رزيناً وقوراً ، ولا يأخذك الجزع في شيء ولكن تعهد الجد في كل شيء، واحرص على السبق وانتبه إلى كل ما حولك ولا تستسلم أبداً إلى عواطف البغض والكره ، ولا تقل كلمة تحدث للحكومة مشكلة إذا لم تكن أذنت بها وزارة الخارجية ، واجعل أسلوبك واضحاً موجزاً لا اضطراب فيه ولا تعقيد ولا إملال » .

٢ — السلك السياسي

أ — وزير الخارجية

يتألف السلك السياسي في سفاراته وبعثاته من رجال شتى سياسيين وعسكريين وبحريين وتجاريين ، ويلحق بهم القناصل والخبراء ، وتوزع في السفارات الأعمال بين مكتب سياسي ومكتب إداري ، ووزير الخارجية هو المرجع الأعلى لرجال هذا السلك وعماله .

وقد أشتدت الحملة في بعض الأحيان على السلك السياسي، ولا سيما بعد الانقلاب العظيم الذي حدث في المواصلات إذ دعا الناقدون إلى الاستغناء عنه وجعله نظاماً لا يختلف عن النظام القنصلي، واقترح الآخرون تسمية رجال هذا السلك مرسلين، ولكنه برغم التطور الذي حدث وبعد لا يزال عن خاله في علاقات الدول وارتباط بعضها ببعض.

وإن الطابع الذي يطبع به وزير الخارجية سياسة بلاده ينبغي أن يكون صورة حقيقية لنيات الحكومة ومقاصدها. ويجب عليه أن يختار أحسن الأساليب وينفق عليها مع حكومته حتى يبلغ أفضل النهايات في خدمة مصالح الدولة والوطن، ولا يكفي أن يكون عارفاً حق المعرفة بدعاوي دولته وحقوقها وواجباتها وقواها واستعداداتها وما ضمنته لها العهود والعقود، بل عليه كذلك أن يعرف الوسائل المادية والمعنوية للدول التي بينها وبين بلاده روابط وعلاقات.

وفي الحق أن المزايا التي يجب أن يتحلى بها وزير الخارجية كثيرة الاختلاف، والأعمال التي يقوم بها تدل على تمكنه في الفن الدقيق الذي هو سياسة أمة ببراعة وإتقان، ومن الصعب إدخال الصفات المبتغاة تحت حصر وإحصاء، في الأمور الخارجية — كما قال (مارتنس) في كتاب الدليل السياسي — لا يمكن تحديد شيء ولا الإكراه على شيء، وهي تقوم على الطلب والرجاء والمفاوضة، وأقل كلمة في غير محلها قد تؤذي شعباً بأسره، والسعي الخاطئ، والحساب الباطل واتخاذ الخطط بحسب الصداقات قد تحط من كرامة الحكومة ومصلحة الدولة.

ووزير الخارجية بوصفه رئيساً للسلك السياسي يستدعي السفير متى أراد، والسفير كذلك أن يطلب المقابلة ويعين طريقة إثارة البحث، وإذا كان ذلك يكلف من الحكومة سبب البحث ظاهر، وكثير من الصفات التي تطلب من وزير الخارجية تطلب كذلك من السفير، كتبادل الثقة واجتناب الدسيسة وحسن التصرف في تمويه الحقيقة وتماشي الأخبار السيئة وفي الصمت والنظر، وعدم الإفراط في تقدير وجود الدسائس والمكايد، وهدوء الأعصاب حتى في المناقشات الشديدة التي يظهر فيها فضل الرجل الذي يستطيع ضبط نفسه على الرجل الذي لا يستطيع، واجتناب الغضب وكل ضعف إنساني يخرج الرجل عن طوره ويحمله على البوح بمكنون سره، ويجب على السياسي أن يفصل بين شعوره والأمور التي يعالجها مهما تكن العواطف الوطنية التي تملأ قلبه. بل إنه ليقال أيضاً — وإن كان في ذلك إثارة وإغضاب لحماسة الكثيرين — إن أفضل سياسي ليس الذي ينقاد إلى قلبه ولكن الذي ينقاد إلى المنطق الهادئ، ويتساءل هذا يستطيع أن ينال وما هو سبيل الوصول إليه. ولما

كان التمكن من النفس ليس من صفات كل إنسان وطبائعه ، فعلى من يريد أن يكون جديراً بالعمل السياسي أن يسعى لمراقبة نفسه والتغلب عليها، وإذا عزّ عليه إدراك ذلك فلابدّ أن يصير في إتفاق الجهد وبذل العناء حتى يناله مع الزمان ، ومن الواجب أيضاً تحليل نفس المخاطب ومعرفة ما يؤثر فيه ، والخطأ في المرمى قد يعقب ضرراً لا يمكن تلافيه ، ويجب في الأمور الكبرى الاعتناء بالاستفادة من الفرص السانحة أكثر من الاجتهاد باحداثها، فإن (ريشليو) و (بسمرك) لم يبدعا الفرص ولم يخلقا الظروف التي مهدت السبيل لنجاح خططهما.

ووزير الخارجية الجدير بهذه المهمة الخطيرة يستطيع أن يقود المساعي والمفاوضات نحو الغاية السياسية الموضوعة فيهدي الرجال السياسيين بخططه وآرائه ويراقب أعمالهم حتى لا يخرج أحدهم عن النهج المرسوم ، ويطلعهم على ما يجري من الشؤون التي تؤثر في مصلحة البلاد ويرسل إليهم حيناً بعد حين وصفاً موجزاً للموقف الخارجي حتى يكونوا على بينة من سياسة الحكومة ومقاصدها .

ووزير الخارجية بوصفه مرجع ساسة الدول الأجنبية في بلاده له مهمة مزدوجة ولكنها مرتبطة من ناحيتها ، فهو يعالج الشؤون السياسية في العالم بالمحادثات الشفوية وليس ذلك لأن الحكومات تريد أن تتخلص عند الحاجة من العهود المكتوبة بل لأنها تريد أيضاً اجتناب الوثائق التي يطلع عليها الآخرون ، وقلما تسجل المحادثات السياسية مع وزير الخارجية ، وذلك بعكس العقود والاتفاقات والاعمال الادارية التي تسجل وتودع بطون الصحائف والدفاتر . وعلاقات السفير مع وزير الخارجية ذات أشكال شتى فمنها ما هو رسمي وما هو شبه رسمي وما هو موقت وسري وخاص وما هو لتنفيذ الأوامر والمناقشة في الشؤون الجارية والمسائل الادارية والمفاوضات السياسية والاقتصادية واستطلاع الأنباء والمحافظة على حسن العلاقات ، وهنالك مسعى ومطلب وتصريح وتبليغ واحتجاج . وعلى السفير أن يحافظ على العلاقات الحسنة مع وزير الخارجية ، وان لا يقاطعه مهما تتحرج الحالة بينهما وأن يحسن اغتنام الاجتماعات الأسبوعية أو الاجتماعات الخاصة والعامة لمعرفة ما يريد الاطلاع عليه، إذ لا يستحسن أن يكتب إلى الوزير يسأله رأيه عن حادثة أو ثورة ولكنه يستخرج ذلك في أثناء مجاذبته الحديث ومخاطبته إياه ، وقد قال (تليران) في وزير الخارجية كلمة تنطبق على كل سياسي وهي : « يجب أن يكون عند وزير الخارجية شيء من القطرة والملكة يحذرانه بسرعة ويمنعانه قبل كل محادثة من الوقوع في مشكلة » .

ولا بد في بعض الأحيان من الالتجاء إلى الكناية ، فالاحتجاج مثلاً يكون حينئذ

أكثر تأثيراً ، على أن اختيار هذه الطريقة غير تابع لقاعدة معينة . وقد تفتر العلاقات بين وزير الخارجية وبين السفير فيلجأ حينئذٍ للمكاتبة ، على أن هذه الحالة لا تكون إلا إلى حين ، فإما أن يتلوها استئناف العلاقات وإما انقطاعها . ومن المجمع عليه أن يتفق مع الحكومة على هذا الأمر ، وقد يستلزم الغياب والمرض الكتابة وكذلك السعي الذي يقوم به السفير لدى الوزير وما ينتظر أن يكون من تأثيره عنده فيطلعه عليه أو على بعضه كتابة بعد استئذان الحكومة في الغالب ، وذلك أملاً في أن يكون أكثر استعداداً للتفاهم بعد الكتابة إليه .

ويغلب أن يبقى السفير للوزير بعد الحديث مذكرة لتأييد ما قاله في حديثه ، وذلك في المسائل المعقدة خاصة ، وتكون الوثيقة المكتوبة ملحقة ، أما إذا قدم السفير وثيقة بأمر الحكومة فحينئذٍ يكون الشرح الذي يلحق بها مضافاً .

والعلاقات الكتابية تأخذ صيغاً شتى ، فالمذكرة يخاطب بها الوزير وتحتوي على صيغة المجاملة الختامية ، وقد تكون بصيغة الشخص الثالث . والمذكرة الشفوية لا توقع ولا بأس من احتوائها صيغة المجاملة ، والمذكرة والخواطر في صيغها الأخرى لا توقع أيضاً وأسلوبها مختصر مجرد ، وقد يضاف إلى هذه المذكرات أنها بأمر الحكومة لتعزيز ما فيها ، على أن هذا من الفضول والزوائد لأن ما أرسل يكون بأمر الحكومة ، وقد تضاف كلمة « سري » . ويجب أن يكون المكتوب واضحاً محدداً مهذباً بعيداً عن الجفاء الذي هو مغاير للقواعد السياسية ، ولا بدَّ من المجاملة في الألقاب . وأما الشؤون المهمة السياسية فتعالج بمذكرة موقعة ، والرسائل الخاصة توضع في الشكل الذي تقتضيه العلاقة بين المتراسلين .

ب — السفراء

يقوم السفير بمهمة تمثيل بلاده ، فينبغي عليه أن يكون رسول سلام وأن يجعل شخصه قريباً من القلوب بمظهره وكلامه وأساليبه ، وهو لا ينال ذلك إلا بتربية صحيحة وثقافة عالية ولهجة أنيقة وعشرة طيبة ، فيحافظ على كرامته بدون كبر ولكن بإباء وترفع ، ويكون حسن البزة ولكن بغير تكلف ولا تصنع ولا إغراق . وتختلف الحاجة إلى المظاهر باختلاف البلاد التي يكون السفير فيها واختلاف أوضاعها . وعلى كل حال فإنه لا يجوز الإفراط الذي ينقلب إلى حد الهزؤ والسخرية . والسفير الذي يمثل سياسة ليست الفضيلة عنصرها المميز عليه أن يكون في حياته الخاصة بعيداً عن كل ما يدلسها ، فهو عرضة للمراقبة ، والسيرة الحسنة تنفعه كما تنفع بلاده لأن العالم يألف التعميم ، وهو بذلك يكون أيضاً مؤثراً في معاونيه ؛

ولا يكون قدوة لهم في عمل سيء . وإذا استعمل السفير الدهاء والحيلة في بعض حاجاته فينبغي عليه أن لا يخرج عن شروط الرجل الشريف، والحيلة تدل في الغالب أن الرجل قليل الرأي ضعيف التدبير ، وأصحاب الأخلاق الكبيرة يشمئزون منها . وعلى السفير أن لا ينصب نفسه للدفاع عن قضية البلاد التي هو فيها ولا ان يقاومها بكل ما لديه من روح المقاومة والمعارضة وهو في البلاد الحمية . فمهما تكن درجته فعليه أن يكون مضاعف البراعة وأن يحسن التفريق بين البلاد الحامية والبلاد الحمية . وعليه أن يفي بما يعد به ، فما قيمة السفير إذا أصبحت كلماته باطلة ووعوده كاذبة وضميره ساقطاً . وعليه أن يتجنب المفاجأة والكبرياء وأن لا يضايق محدثه بمحاولة إظهار براعته والإدلال بصحة رأيه . ومن مقتضيات الحذر الإصغاء برفق وتواضع لحجج الآخرين وعدم التعنت المطلق بحججه . وعندما يريد الاعتراض على رأي يجب أن يحمل إلى المناقشة إلماماً وعدلاً مهما تكن القضية التي يدافع عنها حقاً ، فلا يشعر أحد بتعامل على رأي بيديه . ولا بأس بالتسليم في بعض الأحيان لاستمالة المحدث ثم الاستئناف بعد ذلك للوصول إلى النهاية المطلوبة .

وينبغي اجتناب الافراط في الحماسة أو في البغضاء والحذر من قلق النفس الذي يعطل العمل ويحرم الصبر والدأب . ومهما يكن الرجل الذي يراد إقناعه فينبغي حسن العناية به والالتفات إليه ، وكلمة طيبة في محلها تصلح من الأمور أكثر من جواب عنيف أو طلب مثير . ويجدر بالسفير أن لا يكون كثير الانطلاق وأن يظل بعيداً في فكرته قريباً في نفسه . والتواضع السياسي — وإن كان تظاهراً في بعض الأحيان لتحقيق بعض المآرب ومعرفة بعض الأمور — يُحمد أثره إذا لم يكن مقروناً بالمبالغة . واجتناب الغضب يجعل المرء متمكناً من نفسه فلا تبدر منهُ بادرة تثقل كاهله أو كاهل بلاده كما وقع (لبتمن هولوغ) عند ما وصف حياد البلجيك بأنه قصاصة ورق . ثم يطالب السفير باحترام العقائد الدينية مهما يكن مذهبه ، وأن لا يهتم بالاتصال بالذين يتهافتون عليه منذ وصوله ، فقد يكون هنالك أشخاص لا قيمة لهم وأشخاص محرضون ، والتهالك على تغيير كل شيء لا تحمد عواقبه ، فينبغي السير هوناً في التجديد والاصلاح ، وإذا لم يكن حسن التصرف فطرياً فالطبيعة تساعد على نموه .

وهنالك قضايا لا تزال موضع الجدل والمناقشة فيما يتعلق بجواز ما يصنعه السفراء أو عدم جوازه كالكذب والافساد والتجسس والرشوة . وقد كانت تتناقل الألسن فكاهة مشهورة وصف بها سفراء البندقية ، وهي أن السفير رجل شريف أرسل إلى الديار الأجنبية حتى يكذب باسم الجمهورية ، وقيل أيضاً مثل ذلك في السفير : إنه يتجسس لدولته بصورة

رسمية. ولم يكن (مكيافللي) ومن حذا حذوه يشاركون الأدباء والمعتقدات في استنكار الكذب واعتبار بعضها إياه من الكبائر ، لأنه في نظرهم لا يجوز البحث والمناقشة عندما تكون سلامة الدولة في خطر . ولكن ما أقل الذين يستطيعون أن يقفوا بين أيدي الحقائق غير مفتقرين إلى تحريفها . على أن الصمت يكون في بعض الأحيان منجاة لأصحابه من قول الباطل أو من التعرض للخطر بذكر الحقيقة . أما الافساد واستخدام الجواسيس فهو من الضرورات المزدراة ، على أنه يعذر سفير إذا قام بتنفيذ أمره به رئيسه . ولكن هل يجوز له أن يتدخل في سياسة عملية ويعارض الدولة التي هو فيها . وإذا كانت مهمة السفير خدمة بلاده لا خدمة البلاد التي هو فيها أو دفع الضرر عنها فانه يقتضي مع ذلك إذا كانت سيده بأمر أن يحذره قبل أن يطيعه ، وإن كان الرفض به أجدر والتحريض على الجريمة شر من ارتكابها . وتتدبر الأمور بقدرها في حالات يرجى فيها اجتلاب خير أو دفع شر .

أما المال فقد كان (فيليب المقدوني) يقول إنه يفتح كل حصن مغلق ، وهو عند المعاصرين كذلك ، وقد كانت الهدايا من العادات المألوفة عند الملوك والسفراء وأعضاء المجالس العامة ، ولكن الأمر الذي يصعب تمييزه هو أين تنتهي المجاملة وتبدأ الرشوة ؟ فعلى السفير أن يكون شديد الحذر في قضايا المال حتى لا يصيب سمعته بأذى ، ويجب عليه أن يأبى قبول أية هدية يمكن أن تؤول أو أن تتخذ وسيلة لغاية حتى إنه إذا استطاع أن يرد هدايا مواطنيه كان ذلك خيراً له . وينبغي عليه أن يكون جوّاداً سمحاً ولكن بدون إسراف ولا إفراط ولا محاولة للظهور بمظهر الفائق على أصحاب الغنى والجاه في البلاد التي هو فيها .

ولما كان في مقدمة الأعمال التي يقوم بها السفير إطلاع حكومته على سير الأمور فعليه أن لا يتهاون في تتبع الحوادث ومراقبة اتجاهاتها ومن وسائل الاستطلاع الاتصال بالملوك والرؤساء والأمراء والوزراء وكبار موظفي الدولة ورجال الحكومة المتقاعدين ورجال المعارضة ورجال السلك السياسي ، واتخاذ المخبرين المؤتمنين ومراقبة الشؤون الداخلية بحذر وأناة ، وإقامة المآدب والحفلات ، وتأمل الأشياء والأشخاص ، والاستعانة بصدق الشعور الحكم الصحيح في الأمور على إدراك الحقائق . والصحافة وسيلة مهمة للأخبار سواء صحافة البلاد التي فيها السفير أو صحافة البلاد التي تنتمي اليها ، ومهما كانت أنباء الصحف تحمل الحقائق والأباطيل ولا يكفي تمييز بعضها عن بعض فانه لا يجوز إهمال شيء منها . على أن الأخبار الملفقة تفيد فائدة كبرى لأنها تكشف القناع عن روح التحزب عند الذين يخترعونها ، سواء أكانت الأنباء أم غير مرضية ، فالذي يهم هو معرفتها في حينها .

وقد كان (لويس الرابع عشر) الذي يعد من كبار الملوك السياسيين قد حض سفراءه على مواقاته بجميع الأنباء لأنهُ يريد معرفة الأنباء السيئة كما يريد معرفة غيرها على أنهُ يحسن اجتناب الأنباء التي لا تفيد إلاَّ إثارة النفوس ، وقد وقعت حادثة لسفير إنكلترة في فرنسة أيام حرب السعين بقيت مكتومة ثلاثين سنة ، وذلك أن السفير قبض عليه بتهمة الجاسوسية ثم أخلي سبيله وكان معهُ بعض موظفيه فأمرهم بالصمت إذ لا فائدة من ذكر الأنباء التي لا علاقة لها بأعمال الدولة .

وقد تكون مهمة السفير أصعب في بلاد منها في غيرها ، وذلك بحسب ما تستطيع البلاد كتمانهُ من شؤونها العامة وما تعرضهُ لأنظار المراقبين لها ، ولا يجوز للسفير أن يعتمد في أنبائه على الظنون ولكن على مقدرة في الملاحظة والاستطلاع ، وينبغي أن يكون على حذر من الجواسيس إذا لم يجد بدًّا من استخدامهم لأن هذه الطائفة من الناس لا تبالي في سبيل المال أن تخترع الأنباء ، ولما كانت صناعتهم تقصيهم عن أن تكون لهم ضمائر تحاسبهم فهم لا يترددون في خيانة الذي يبذل لهم المال إذا وجدوا من يزيد في عطائهم .

والسفير يعرف ماذا ينتظر منهُ بحسب البلاغات والأوامر التي لديه ، ويحسن أن ترسم له خطة قبل سفره وأن تكون واضحة بينة لا تحتمل شكًّا أو تأويلاً . على أنهُ بوجوده في مكان عمله له حق التقدير ويمكنهُ أن يجد من الدلائل والبينات ما لم يكن عند واضع الخطة . وإذا كانت مهمة السفير تقتصر على نقل ما كلف به وحمل الأجوبة التي يتلقاها فلا حاجة إلى أن يكون حذراً أو فصيحاً ولا أن يبذل العناء في حسن الاختيار .

وجملة ما يقال أن في حسن إدارة الأخبار وتلقيها وملاحظة الأشياء والأشخاص والاستدلال بالوقائع والأحوال والجد في تسيير الأمور وتمثيل البلاد خطر مهمة السفراء .

وقد كان يتوقف عليهم فيما مضى المحافظة على توازن الدول ، فكانوا هم المتفاوضين العاملين في وضع المعاهدات التي كان بعضها مثل معاهدة (وستفاليه) Westphalie من الحوادث الخطيرة في تاريخ العالم ، وقد أريد أن تقوم عصبة الأمم مقامهم في تسوية قضايا الشعوب ، فأصابت بعض النجاح ، ولكنها لم تصل إلى الغاية التي أرادها منها منشئوها وانتهى أمرها إلى الإخفاق .

ج — القناصل

كان القناصل في الماضي رجال تجارة وكانت التجارة تسبق السياسة وتمهد لها السبل . والقناصل هم الرجال المقيمون في الديار الأجنبية للسهر على مصالح مواطنيهم ، وقد وصفهم

(تليران) بقوله : إن خصائصهم تختلف اختلافاً لا حد له ، وهم يقومون بوظيفة ضابط الأحوال المدنية وكاتب العدل وأحياناً بوظيفة القاضي والحكم ، وأحياناً بوظائف تجرية ومراقبة الاحوال الصحية في السفن ، ويمكنهم أن يروا رأياً صحيحاً في التجارة والملاحة والصناعة في البلاد التي يقيمون بها . ويفيد القناصل بما يبدونه من آراء تجار البلاد وأرباب المصالع . وقد قررت المحاكم الفرنسية في اجتهادها اعتبار القناصل موظفين عامين ولكنها رفضت لهم صفة التمثيل التي ليست إلا من حق رؤساء البعثات السياسية والسفراء والوزراء . والقناصل لا يتلقون كتب اعتماد من حكوماتهم ولكن كتباً تعترف بهم ، ولا يمكن القيام بوظائفهم ما لم تمنحهم الحكومات التي يعينون لديها صفة التنفيذ من غير أن يكون لهم صفة سياسية ، ما عدا بلاد الشرق ، فقد كانوا يتمتعون فيها أحياناً بهذه الصفة وبما يترتب عليها من مكانة .

وعلى كل حال فانه ينبغي الاعتماد على القناصل والثقة بهم وإن كانوا يسرفون في الغيرة على مصالح المواطنين الذين يعيشون بين ظهرانيهم ، ويحسبون أن كرامة بلادهم تتعرض للاهانة في الصغيرة والكبيرة ، وهذا النوع من الاسراف هو الذي اتفق على استنكاره أقطاب السياسة مثل (تليران) و (بسمرك) و (تيرس) .

﴿ الذيل ﴾

بعض الآراء الاسلامية فيما يلابس ذلك

الدبلوماسية من منشآت العصور الحديثة . ولكن الفكر الانساني كان عليه أن يعالج الأمور المشابهة لها ، فلذلك نجد المؤلفين في أبان الدولة الاسلامية والحضارة العربية يعرضون بطبيعة الحكم وجانبان السلطان الى مثل هذه الامور التي أوردنا ذكرها تقلاعن القريين ، وبحثوا في أساليب الكتابة في مختلف الأحداث الخطيرة وفي شؤون السفراء والرسل والعيون والجواسيس ، وكانت هذه الأبحاث تتصل بنواحي الشرع والفقه والسياسة والأدب ، ونحن نقتبس هنا بعض ما أوردوه من ذلك :

١ — الكتابة في الأحداث الخطيرة

ذكر صاحب « صبح الأعشى » نقلا عن كتاب « مواد البيان » ما يكتب به عن السلطان من غير بريد الدولة عنه وستر حقيقته كالاعلام بالحوادث الحادثة في الملوك والنوائب المالة بالدولة : من هزيمة جيش أو تفتيت رسم أو اجبانه أو تكليف الرعية ما لا يسهل عليها تكليفه وما شاكه ذلك ، ويجب أن يقصد بذلك الى الاختصار والايجاز ويعدل عن استعمال الألفاظ الخاصة بالمعنى الى غيرها مما يحتمل التأويل ولا تنفر الاسماع منه ، ولا تراع القلوب به ، من غير أن يحتمل كذبا صراحاً ، فانه لا شيء أقبح بالسلطان ولا أعض لشأنه وقدره من أن يعلن كتابه بما يكشف للعامة بطلانه ، وينبغي للكاتب أن يتخلص من هذا

الباب التخلص الجيد الذي يربن به الأمر من غير تصريح بكذب ، وأن يخرج الباطل في صورة الحق ويعرض سلطانه في ذلك للاحاد والتفريط من بحيث يستحق التأديب والانتقام ، فان هذه سبيل البلاغة وطريقة الصناعة لأن الأمر الظاهر الحسن الجميل على فضله لا يحتاج في التعبير عن حسنه الى كد الخاطر وانتصاب الفكر ، وانما الفضل في تحسين ما ليس بحسن وتصحيح ما ليس بصحيح ، بضروب من التمويه والتضليل واقامة الشواهد من العقل على الاساءة والتقصير من حيث لا يلحق كذب صريح ولا زور فاضح

ب — السفراء والرسل

وجاء في « كتاب رسل الملوك » المنسوب الى أبي علي الحسين بن محمد المعروف بابن الفراء فصول جليلة الفائدة على قصر فيها وايجاز تذكر الحدود التي يجب أن يقف عندها الرسل في سفاراتهم والصفات التي ينبغي أن يتحلوا بها كالصبر والوقار والاناة والشجاعة والحلم والصدق . وقد جاء في هذه الفصول ما يلخص بعضه في ما يلي هذا :

« اختر لرسالتك في هدنتك وصلحك ومناظرتك والنيابة عنك رجلا فصيحاً بليغاً حولا عليماً قليل الغلة متهيء الفرصة ذا رأي ومزل وقول وفصل ولسان سليط وقلب حديد ، فطناً للطائف التدبير ومستقلا بما ترجو وتحاول بالحزم واصابة الرأي ، متعقباً له بالفهم والتمييز ، ساعياً الى ما يستدعيه اليك ويستدفعه عنك ، ان ساول جر أمر أحسن استلاله وان رام دفعه أحسن رده ، حاذر الفصاحة مستنير البادرة ظاهر الطلاقة وثاباً الى الحجج ، مبرماً لما نقض ناقضاً لما أبرم ، يحيل الباطل في تخاص الحق والحق في تخلص الباطل ، محتالا في محاورته ومكايدته ، وليكن من أهل الشرف والبيوتات ذا همة عالية ، فانه لا بد مقتف آثاره وليه يجب لناقبها مساو لأعلاه فيها . فمتى اجتمعت لك فيه هذه الخصال فاجعله من بطانتك واطلعه طلع أمرك ضميره وخبيره واستشره في شؤونك لطيفها وجليلها . »

ويحسن أن يكون الذي تختاره للتوجه في الرسائل جهير الصوت حسن الرواء مقبول التهائل جيد البيان حافظا لما يبلغ ليؤديه على وجهه . ولا يمنعه الصدع عن سلطانه رشية يقدمها ليمن يتوجه اليه ولا جهالة يستشعرها في نفسه ونقديم النصيحة لرئيسه . فانه متى لم يكن المتكفل لهذا العمل واسع الحيل بابا من التحريف والتمويه فيما يختلف فيه بين السلطان وبين من يراسله ويناهضه على لسانه بما يحتاج اليه ، فان عدا هذه الصفة وقع في أعمال السلطان بذلك أظهر خلل وأعظم ضرر ، ولذلك يجب على الناس أن يجتهد في تخيره لهذا العمل من يصلح له ويستقل به ويجريه على وجهه . . ويلبغي أن يكون الرسول حاد البصر ذكي القلب يفهم الايماء ويناظر الملوك على السواء ، فانه انما ينطق لسان مرسله . . فاذا ذكر عرف واذا نظر اليه لم يحتقر . . لا تقتحمه العين ولا يزدري بالحيرة . . . والامامة ترمق المنظر أكثر مما ترمق الكفاية والسواء . ويجب أن تزاح علله فيما يحتاج اليه حتى لا تشغله نفسه الى ما يبدل له ويدلج اليه فان الطمع يقطع الحجة والرسول أمين لا أمين عليه فيجب أن يرتهن بالاحسان اليه والافضال عليه . . ثم ان الرسالة محدوداً لا يتسع تعديها وحقوقاً يلزم القيام بها ، اولها ايثار الصدق وتعمد النصح وأن يصدع بالرسالة وله أن يدع المعنى المغلظ منها في الألفاظ اللينة . . والرسول محتاج من الاحتشام والجرأة الى مثل ما يحتاج اليه من الوقار والرزانة ، لأنه ليس على كل الطبقات بشدة ولا لكلها بلين ، ورعا لم يسعه الا أن يصدع بالرسالة على ما فيها ، فان لم يكن جريئا مرحها وأخل بها » .

وقد أورد الوزير نظام الملك في كتابه « سياست نامه » الذي وضعه بالفارسية فصلا في الرسل وطريقة معاملتهم نصح فيه بمراعاتهم والاحسان اليهم حتى يرضوا ويذكر انهم يقومون مقام الملك الذي أرسلهم ، فكل مرمة لهم تكون موجبة له . وقد تعارف الملوك على أن يقابلوا حسن المعاملة وأن يكرموا الرسل الذين يأتونهم فيبزوا شأنهم ويرضوا ذكرهم واذا اختلف الملوك وتنازعوا فان السفراء كانوا يقومون داعماً خير قيام بما يعيد اليهم من الأمور المهمة على حسب ما لديهم من الوصايا والتعاليم . ولم يعرف أن الرسل أسيء اليهم وأنهم عوملوا بغير ما ألف من المجاملة ، واذا وقع شيء من ذلك أنكره جميع الناس .

ولم يرد الملوك بارسال السفراء أن يمشوا برسالة ويكتفوا بها ولكن يريدون أن يعرفوا كثيراً من أحوال المملكة ودقائق شئونها ، ولا يجوز أن يركن اليهم بالكلية لهم كاليون والجواسيس وأصحاب الأسرار . واذا أراد ملك أن يرسل رسولا عليه أن يحسن انتخابه من أولي المعارف الرياسة والمدارك البعيدة وطلاقة اللسان وبهاء المنظر وحسن الخبر .

ج — العيون والجواسيس

قال صاحب «صبح الاعشى» : «النظر في أمر العيون والجواسيس جزء عظيم من تدبير الملك وعماد المملكة وقد شرطوا في الجاسوس شروطاً : منها أن يكون ممن يوثق بنصيحته وصدقه ، فان الخائن لا ينتفع بخبره وان كان صادقاً لانه ربما أخبر بالصدق فتهم فيه بتعوت فيه المصلحة ومنها أن يكون ذا حدس صائب وفراسة تامة ليعرف بنور عقله وصائب حدسه من أحوال العدو بالمشاهدة ما كشره . ومنها أن يكون كثير الدهاء والحيل والخديعة ... ومنها أن يكون له دراية بالاستار وعمرة البلاد التي يتوجه اليها ومنها أن يكون عارفاً بلسان أهلها ... ومنها أن يكون صبوراً على ما لعله يصير إليه من عقوبة ان ظفر به العدو بحيث لا يخبر بأحوال مليكه ولا يطلع على وهن في مملكته ، فان ذلك لا يخلصه من يد عدوه ولا يدفع سطوته عنه .

فاذا وجد من العيون والجواسيس من هو مستكمل هذه الشرائط وما في معناها عليه أن يظهر ضم الود والصداقة ولا يظلم أحداً منهم في زمن تصرفه له انه يتهمه ولا أنه غير مأمون فيه ، فربما آذاه ذلك في أضيق الاوقات ان يكون شيئاً عليه ... وعليه أن يجزل لهم الاحسان والبر ولا يثقل تعاهدهم بالصلات قبل احتياجه اليهم ، ويزيد في ذلك عند توجيههم الى المهمات ، ويتعهد أهليهم في حضورهم وغيبتهم .. واذا تفضى على من بعثه منهم بقضاء أحسن الى من غاله من أهله ، وجعل لهم من بعده من الاحسان ما كان يجعله له اذا عاد بنفسه عليه ليكون ذلك داعياً لغيره على التضحية . واذا تعذر ان عاد منهم أحد غير ظافر بقصد أو حاصل على طلبة وهو ثقة فلا يستوحش منه بل يوليه الجميل ويماله بالاحسان . وعليه أن يحترز من أن يعرفه جواسيسه بعضهم بعضاً لا سيما عند التوجه للمهمات ، وان استطاع أن لا يجعل بينه وبينهم واسطة فعل ، وان لم يمكنه ذلك جعل لكل واحد منهم رجلا من بعض خاصته يتولى ايصاله اليه . . وأيضاً فانه لا يؤمن اتفاقهم عليه ومحالأتهم لعدوه . . وعليه أن يصغي الى ما يلقيه اليه كل من جواسيسه وعيونه وان اختلفت أخبارهم ويأخذ الأحوط فيما يؤديه اليه اجتهاده من ذلك ، ولا يجعل اختلافهم ذريعة لأحد منهم ، فقد تختلف أخبارهم وكل منهم صادق فيما يقوله . . واذا عثر على أحد من جواسيسه بزلة فيستقرها عنه وعليه ولا يبادره على ذلك ولا يوبخه عليه فان ويخه في خلوة فليطف .. فان ذلك أدعى لاستمالته .. واذا أحضر اليه جاسوس يخبر عن عدوه استعمل فيه التثبت ودوام البشر ، ولا يظهر تهمة له عليه تظهر معه الحفة ولا اعراضاً عنه بفوت معه قدر المناصحة ولا يظهر له كراهة ما يأتيه من الأخبار المكروهة ، فان ذلك مما يستدعي كتمان السرعة فيما يكره فيؤدي الى الاضرار ...

واعلم أنه لا يمكن أحد أن يمنع بلاده أو عسكره من جواسيس عدوه فيجب الاحتراز منهم بكتمان السر وستر الورة ما أمكنه ، على انه ربما دعت الضرورة في بعض الأحيان الى أن يعرف الملك عدوه بعض أموره على حقيقته لأمر يحارك به مكيدته . والطريق في ذلك أن يتلطف الى أن يصير جاسوس عدوه جاسوساً له ، بأن يتودد اليه بالاستمالة والبر وكثرة البذل . حتى يستخرج نصيحته ، فحينئذ تلقي اليه ما أراد تبليغه الى صاحبه الأول مما فيه المكيدة فيوصله اليه فيكون أقرب لقبوله من بلوغه له من غيره ممن يتهمه» .

٥

« دمشق »